التعليم في ظل مفهوم الاقتصاد المعرفي في العالم العربي

محمّد محمود عبد الرَّحيم
باحث اقتصادي

يُعدُّ التعليمُ من أهمِّ قواعدِ صناعةِ التنميةِ الاقتصاديةِ، في ظلِّ غيابِ الوعي نتيجةَ إهمالِ التعليمِ إلى جانبِ العديدِ من المشكلاتِ (السياسيةِ، والأمنيةِ، والاجتماعيةِ) والتي ساهمتْ في صناعةِ مفهومِ اقتصادِ اليأسِ في العالَمِ العربيِّ، وساهَمَ في ذلك أيضاً تكريسُ ثقافةِ الانقسامِ والصراعاتِ في المجالاتِ كافّةً مع إهمالِ البحثِ العلميِّ إلى جانبِ الإشكالِ الخاصِّ في تطبيقِ العلمِ في العالَمِ العربيِّ، وإمكانِ التحوُّلِ إلى مجتمعِ الاقتصادِ المعرفيِّ وتطبيقِ العلمِ في الحياةِ، وهي من أكبرِ التحدِّياتِ العلميةِ.

بداهةً لابُدَّ أنَّ لكُلِّ شيءٍ تتعلَّمُه في الحياةِ تطبيقاً؛ وإلاّ فإنّ التعليمَ يفقدُ قيمتَه؛ فالعلاقةُ بين العملِ والتعليمِ هي علاقةٌ طرديّةٌ؛ أيّ: كُلّما زادَ التعليمُ زادتْ معه فُرَصُ العملِ المناسبةِ، واعتقدُ أنّ أهمَّ مُخرَجاتِ التعليمِ تكمُنُ في أكثرَ من محورٍ وأهمُّها:

المحور الأول: الوضعُ الاجتماعيُّ والتأثيرُ في المجتمعِ؛ فكلَّما زادَ مُعدَّلُ التعليمِ والمعرفةِ انعكسَ ذلك على المهاراتِ الاجتماعيةِ والاتصالِ الخاصَّةِ بالشخصِ مع المجتمعِ من مثلِ حلِّ المشكلاتِ وتوقُّعِها، وإدارةِ الأزماتِ، وصناعةِ القراراتِ، والتأثيرِ في الآخرينَ، وغيرِها من المهاراتِ؛

المحورُ الثاني: وهو الانعكاسُ المادِّيُّ؛أيّ: كُلّما زادَ التعليمُ زادَ المقابلُ المادِّيُّ؛ وخُصوصاً في ظلِّ نظريةِ النُّدرَةِ النسبيَّةِ، وكلّما زادَت نُدرَةُ ونوعيَّةُ التعليمِ وطلبُ سوقِ العملِ لهذا التعليمِ زادَ المقابلُ المادِّيُّ ممَّا ينعكسُ على حياةِ الفردِ الشخصيةِ وعلاقتِه مع مَن حولَه؛

المحورُ الثالثُ: وهو محورُ الرِّضا الداخليِّ والشعورِ بالتقديرِ الداخليِّ؛ وهو ما يُسبِّبُ التوازنَ النفسيَّ للشخصِ، كما أنّ نوعيةَ وجَودةَ التعليمِ كلَّما كان محتواها القِيَميُّ أرفعَ وأرقى وتزامنَ مع تدريبٍ جيِّدٍ ساهمَ في اكتسابِ الخبراتِ سريعاً، وهذا بالفعلِ أفضلُ كثيراً من الاعتمادِ على الخبرةِ العمليةِ فحسْب؛ فقياسُ التكلفةِ والعائدِ في التعليمِ مُهمٌّ جداً،وإذا ما أصبحَ التعليمُ تكلفةً بلا عائدٍ فلا قيمةَ له ولا هدفَ منه. هذا بالإضافةِ إلى أهميَّةِ امتلاكِ الموهبةِ الشخصيَّةِ ؛لأنّها أساسُ النجاحِ مع العملِ والتعليمِ لإيجادِ مكانةٍ مُتميِّزةٍ- سواءٌ في سُوقِ العملِ، أو حتى في الحياةِ الشخصيةِ، فإنّ الموهبةَ إذا تمَّت إدارتُها بالأسلوبِ المناسبِ الحكيمِ مع تعليمٍ ذي جَودةٍ فستتحقَّقُ نتائجُ مُبهِرَةٌ على

المجالات كافّةً. كذلك فإنّه من المهمِّ أنْ يُصبحَ تعليمُ الفردِ يدلُّ على (موهبته، وقُدراته، وإمكاناته)؛ لأنّه إذا كان التعليمُ مُهمَّاً كانت قيمتُه ضدَّ مهاراتِ ومواهبِ الفردِ الشخصيةِ فستصبحُ عمليةً مُدمِّرَةً؛ لأنّه يُبعدُ الفردَ عن مواهبه هذا من جهةٍ ويكتسبُ تعليماً غيرَ نافعٍ؛ لأنّه في الأغلبِ لم يُؤثِّرْ في الشخصِّ ولم يجدْ قابليةً له في داخله ، ف"التعليمُ بلا موهبةٍ نصفُ نجاحٍ"، و"الموهبةُ بلا تعليمٍ أكثرُ من نصفِ النجاحِ"، و"التعليمُ والموهبةُ هو النجاحُ بعينه"، ومن الضروريِّ أيضاً فهمُ العلاقةِ بين التعليمِ والموهبةِ والتأثيرِ على سُوقِ العملِ.

مُصطَلحُ التعليمِ غيرِ المكلفِ وهو تعليمٌ قليلُ التكاليف، وقد يكون العائد الاقتصادي له قليل أو متوسط أو كبير وغالباً ما يكونُ (تعليماً نظرياً دونَ تجاربٍ، أو تطبيقاً، أو أبحاثاً وتفاعلاً علمياً، أو تنميةَ القُدراتِ العلميةِ والشخصيةِ)، وينتشرُ التعليمُ غيرُ المكلفِ في الوطنِ العربيِّ؛ حيث الكلياتُ النظريةُ ذاتُ الأعدادِ الكبيرةِ دونَ النظرِ إلى جَودةِ التعليمِ؛ فَعلى سبيلِ المثالِ: أحدُ الكُلِّيَّاتِ في إحدى الجامعاتِ العربيةِ العريقةِ لا يُوجَدُ معاملُ للحاسبِ الآليِّ تُغطِّي أعدادَ الطلابِ؛ ممّا يُؤدِّي إلى تعليمِ برامجِ الحاسبِ الآليِّ أن يكونَ نظريّاً على الورقِ بدلاً من استخدامِ المعاملِ؛ فتحوَّلَ الهدفُ من إجادةِ مهارةٍ للطالبِ إلى حفظِ منهجٍ ونسيانه بطبيعةِ الحالِ بعد الدراسةِ.

إنَّ التعليمَّ الأمثلَ هو القائمُ على أركانِ (التعلُّمِ، والبحثِ، وتطويرِ المهاراتِ الشخصيةِ والمهنيةِ) نتيجةَ الفسادِ، والروتينِ، والمحسوبيةِ، وزيادةِ عددِ الخرِّيجينَ، أدَّى ذلك إلى زيادةِ المعروضِ من رأسِ المالِ البشريِّ؛ ممّا زادَ الطلبَ على العمالةِ فإنّ العَرْضَ يزيدُ عن الطلبِ بما يَعني: أنّ صعوبةَ وجودِ فُرَصِ عملٍ حقيقيةٍ للشبابِ في الوطنِ العربيِّ، وبالتالي فإنّ سُوقَ العملِ ليس مفتوحاً بما يعني: أنّ العَرضَ والطلبَ يُواجهُ تشويهاً في سُوقِ العملِ في الوطنِ العربيّ، وبما ينعكسُ سلباً على العديدِ من المشاكلِ والظواهرِ المجتمعيةِ، وأهمُّها على الإطلاقِ هو البطالةُ؛ حيث أنّ "البطالةَ" ليستْ ظاهرةً قاصرةً على الاقتصادِ الكُلِّيِّ ومُؤشِّراته؛ بل هي ظاهرةٌ في المجتمعِ تُؤثِّرُ في ظواهرَ أُخرى؛ مثلِ: نسَبِ الجريمةِ والعُنوسةِ.

لقد ظهرتْ مفاهيمُ جديدةٌ في التعليمِ للربطِ بين التعليمِ وسُوقِ العملِ، ومنها على سبيلِ المثالِ:

– التعليمُ بالمحاكاةِ :Simulation هو استخدامُ الطالبِ الأجواءَ الحقيقيةَ التي سيُمارسُ منها مَهمَّتَه، أو مهنتَه بعد التخرُّجِ؛ ولكن في صُورةٍ تعليميةٍ– سواءٌ كان هذا باستخدامِ أجهزةٍ مثلِ: استخدامِ جهازِ مُحاكاةِ قيادةِ الطائراتِ والدَّبَّاباتِ لطُلَّابِ الكُلِّيَّاتِ العسكريةِ، أو محاكاةً لمحاكمِ لطُلّابِ الكُلِّيَّاتِ القانونيةِ على سبيلِ المثالِ، أو عقدِ مُؤتمَرٍ للطُلَّابِ لمُناقشةِ القضايا المعروضَةِ لجامعةِ الدولِ العربيةِ في قاعةِ القِمَّةِ العربيةِ نفْسِها لطُلَّابِ العلومِ السياسيةِ، كما تُساهمُ عمليةُ المحاكاةِ في ربطِ التعليمِ بسُوقِ العملِ، وتقليلِ الفجوةِ مع الواقعِ؛ وبالتالي عند التخرُّجِ تكونُ نسبةُ النجاحِ والتأقلُمِ أعلى بكثيرٍ من استخدامِ النظرياتِ فحسب.

التعليمُ المرِحُ: هو ذلكَ النوعُ من التعليمِ الذي يستخدمُ بالألعابِ وخُصوصاً للأطفالِ في بدايةِ التعليمِ ألا وهي إيجادُ ألعابٍ لها أهدافٌ تعليميةٌ– سواءٌ كانتْ (ألعاباً فكريةً، أو رياضيةً، وما إلى ذلك من ألعابٍ علميةٍ، وأناشيدَ

ومسابقات) وغيرها بالإضافة إلى اكتشاف الطفل وقُدراته من خلال هذه الألعاب ووضعها في بيئة تخيليَّة (محاكاة صغيرة ومناسبة) للتركيز على إبداعاته، وهذا المفهومُ غائبٌ تقريباً في العالَم العربيِّ؛ فقد ذَكَرَ تقريرٌ لمنظَّمة الأُمَمَ المتحدَّة للتربية والعلوم والثقافة" اليونسكو" عام ٢٠١٤ م قالت إنّ نحو ٤٣٪ من الأطفال في الدول العربية يفتقرونَ إلى المبادئ الأساسيَّة للتعليم– سواءٌ كانوا في (المدارس أو خارجَها). كما جاء فيه أيضاً أنّ ٣٦٪ في المائة فقط من الفتيات في اليمن– على سبيل المثال –، حصلْنَ عن قَدْرٍ من التعليم الأساس.

التعليمُ التفاعليُّ: هو التعليمُ القائمُ على المشاركة؛ مثل(الندوات، والدورات التدريبية، والمؤتمرات) وأبرزُ مثالٍ على ذلكَ هو تدريبُ مجموعةٍ من الطلاب على برنامجٍ تدريبيٍّ مُعيَّنٍ، ثمَّ يقومُ هؤلاء الطلَّابُ بعد ذلكَ بتدريب زُملائهم في الجامعة تحت إشرافٍ أكاديميٍّ، وبذلكّ يتمُّ إعطاءُ الفُرصة لصُنْع قيادات طلابيَّةٍ وتعظيم الاستفادة للطلَّاب وتشجيع البحث والتعليم التفاعليِّ.

وقد سَعَتْ في هذا الإطار بعضُ الجامعات العربية، وواقعُ التعليم في العالم العربيِّ ليس بخيرٍ؛ فقد ذَكَرَت المنظَّمةُ العربيةُ للتربية والثقافة والعلوم "ألكسو" في تقريرٍ لها عام ٢٠١١م إنّ أكثرَ من رُبْعِ سكَّان الوطن العربيِّ ما زالوا مَحرومينَ من التعليم ومواصلة التعلُّم أشارَ إلى أنّ مُعدَّلَ الإلمام بالقراءة والكتابة في الدول العربية وصلَ إلى ٧٢.٩ في المائة؛ أيّ: أنّ نسبةَ الأميَّة تصلُ إلى ٢٧.١ في المائة. الأملُ في التعليم والمعرفة في العالَم العربيِّ موجودٌ بالطبع الصورة ليست قاسيةً هكذا؛ فهناكَ جهودٌ كبيرةٌ تُبذَلُ على أرض الواقع؛ فعلى سبيل المثال: تصنيفُ الجامعات العربية في تصنيف شانغهاي للعام ٢٠١٤م أحدَ أهمِّ التصنيفات للجامعات في العالم، ويعتمدُ تصنيفُ شانغهاي الأداءَ فيما يتعلَّقُ بالبحوث ولاسيّما البحثَ العلميَّ، من دون الأخذ بعين الاعتبار جَودة التعليم.

كما تشملُ معاييرُ التصنيف مرورَ الحائزينَ على جوائز نوبل –سواءٌ من خلال الدراسة، أو التدريس (٢٠ بالمائة من العلامة الممنوحة)، ونجاح الخرِّيجين (١٠ بالمائة)، وحجم الدراسات والأبحاث المنشورة في مجلَتَي "ناتشر" و"ساينس" البريطانيتين (٢٠ بالمائة)، ونسبة الإشارة إلى تلك البحوث والجامعات في وسائل الإعلام والمجلات العلمية (٢٠ بالمائة)، ونسبة الإشارة إلى الباحثينَ في السنوات الخمس الأخيرة (٢٠ بالمائة)، والأداء الأكاديميِّ (١٠ بالمائة، كما جاءت جامعةُ الملك عبد العزيز السعودية الأُولى عربيًّاً في المركز ٢٥٦ متبوعةً بجامعة الملك سعود في المركز ١٥٧. وحلَّتْ جامعةُ القاهرة ثالثةً على المستوى العربيِّ في المركز ٤١٠ عالَميًّاً، ثمَّ حلَّتْ جامعةُ العلوم والتكنولوجيا في الرياض بالمملكة العربية السعودية في المركز ٤٢٦ متبوعةً مباشرةً بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن في المركز ٤٢٧.

نموذجٌ للأملِ العربيِّ في التعليم وتطبيقه (مشروع مسبار الأمل الإمارات) في مايو ٢٠١٥ م أعلنَ نائبُ رئيس دولة الإمارات، الشيخُ مُحمَّد بنُ راشد آل مكتوم عن إطلاق اسم "مسبار الأمل" على مسبار المرِّيخ الإماراتي. وينطلقُ المسبار الإماراتيُ في رحلةٍ تستغرقُ ٩ أشهُرٍ يقطعُ خلالَها أكثرَ من ٦٠ مليون كيلو متراً، وستكونُ دولةُ

الإماراتِ ضمنَ ٩ دولٍ في العالَم فحسب لها برامجُ فضائيةٌ لاستكشافِ الكوكبِ الأحمرِ، ومن المقرَّرِ للمسْبارِ أنْ يصلَ لكوكبِ المرِّيخ في العام ٢٠٢١م، تزامناً مع الذكرى الخمسين لقيامِ دولةِ الإماراتِ. وتهدفُ وكالةُ الإماراتِ للفضاءِ إلى تنظيمِ، ودَعمِ، ورعايةِ القطاعِ الفضائيِّ الوطنيِّ، ودعمِ الاقتصادِ المستديمِ المبني على المعرفةِ، والمساهمةِ في تنوُّعِ الاقتصادِ الوطنيِّ. وشدَّدَ نائبُ رئيسِ دولةِ الإماراتِ على أنّ "شبابَ الإماراتِ هُم أملٌ للشبابِ العربيِّ والمسلمِ ونحنُ لا نعرفُ اليأسَ ولا المستحيلَ، واخترنا إطلاقَ اسمِ مسبارِ الأملِ".

المسبارُ الذي يقتربُ حجمُه ووزنُه من حجمِ ووزنِ سيارةٍ صغيرةٍ، سيحلق بسرعة ١٢٦ ألف كيلومتراً في الساعة في رحلته الكونية التي يبلغُ طُولُها ٦٠٠ مليون كيلومتراً والتي ستستغرقُ ٢٠٠ يوماً. المسبارُ أيضاً سيدورُ حولَ كوكبِ المرِّيخ حتى عام ٢٠٢٣م، ويقومُ في هذه الفترةِ بإرسالِ مَعلوماتٍ إلى الأرضِ؛ ليَقُومَ المختصُّونَ بتحليلِها في دولةِ الإماراتِ، ويتبادلونَها مع أكثرَ من ٢٠٠ مؤسسة في أرجاءِ العالَمِ كافّةً، والمشروعُ بسواعدَ إماراتية. والمشروعُ نموذجٌ لبناءِ الطواقمِ ،وربطِ التعليمِ بسُوقِ العملِ؛ فهناكَ العديدُ من الأفكارِ والمقترَحاتِ للتطويرِ التعليمِ وربطِه بسوقِ العملِ في العالَمِ العربي، ومنها على سبيلِ المثالِ: ربطُ التعليمِ الأكاديميِّ في الجامعاتِ بسُوقِ العملِ من خلالِ وحداتٍ للتوظيفِ، والتدريبِ وتنميةِ المهاراتِ في الجامعاتِ العربيةِ والمدارسِ العربيةِ، تطويرِ التعليمِ الفنِّيِّ والصناعيِّ، العملِ على مكافأةِ الخرِّيجينَ الأوائلِ والمتميِّزينَ؛ سواءٌ للجامعاتِ، أو التعليمِ الفنِّيِّ من خلالِ قروضٍ حَسَنةٍ، ومكافآتٍ ماليةٍ لائقةٍ، والتشجيعِ على فتحِ مشروعاتٍ، وتشجيعِهم على ريادةِ الأعمالِ والمساندة في مرحلةِ ما بعدَ فتحِ المشروعِ؛ من خلالِ التدريبِ، والاستشاراتِ الفنِّيَّةِ والماليةِ، وتشجيعِ ثقافةِ العملِ الحُرِّ، والتعاونِ مع المجتمعِ المدنيِّ والجامعاتِ لنشرِ ثقافةِ العملِ التطوعيِّ في المجالاتِ كافّةً، وبالتالي ينعكسُ ذلك على الخبرةِ، وكفاءةِ الطلابِ في سوقِ العملِ في المستقبلِ بعدَ التخرُّجِ، ودمجِ الأنشطةِ الطلابيةِ في المقرَّراتِ الدراسيةِ مع تصميمِ أنشطةٍ طلابيةٍ تتناسبُ مع كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ التعليمِ؛ سواءٌ الجامعيُّ أو ما قبلَ الجامعيّ.

وأخيراً وليس آخراً: فإنّ الوطنَ العربيّ يحتاجُ إلى مجهودٍ ضَخمٍ وكبيرٍ من أجلِ التنميةِ الاقتصاديةِ، وهناك الكثيرُ من العلاماتِ المضيئةِ للتحوُّلِ للاقتصادِ المعرفةِ والتنميةِ الاقتصاديةِ؛ ف"التعليمُ هو رأسُ المالِ الحقيقيِّ للدولِ وأساسِ أي تنميةٍ اقتصاديةٍ، وهذه الحقيقةُ التي يعملُ من أجلِها دولُ العالمِ؛ وحتى وإن كانت كلَّ المؤشراتِ الدوليةِ والإحصائياتِ تؤكِّدُ أنّ التعليمَ في الوطنِ العربيّ في حالةٍ سيِّئةٍ؛ إلاّ أن هناك أملاً وجهوداً قد تنعكسُ في المستقبلِ على التعليمِ؛ ولما لا فقَد نستطيعُ يوميَّاً أن نغزوَ الفضاءَ، أو نستحوذَ على جوائزِ نوبل، فلن يتغيَّرَ مفهومُ اقتصادِ اليأسِ إلاّ من خلالِ التعليمِ؛ ليصبحَ التعليمُ وقودَ التنميةِ في العالَمِ العربيِّ في المستقبلِ. وباللهِّ التوفيق.